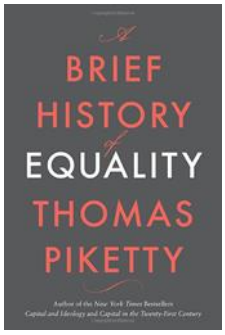

مراجعة كتاب

توماس بيكيتي. تاريخ موجز للمساواة

المراجع: مبشيل ألاسيفج*

ترجمة: مصباح كمال**

توماس بيكيتي. **تاريخ موجز للمساواة**. كامبريدج، ماساتشوستس: مطبعة بيلكناب لمطبعة جامعة هارفارد، 2022، عدد الصفحات 10+288

Thomas Piketty. *A Brief History of Equality*. Cambridge, Mass.: The Belknap Press of Harvard University Press, 2022. x + 288 pp. $27.95 (hardcover), ISBN 978-0674273559.

Published by EH.Net (April 2023).

Copyright (c) 2023 by EH.Net. All rights reserved.

يمكن قراءة النص الأصلي للمراجعة باستخدام هذا الرابط:

https://eh.net/book_reviews/a-brief-history-of-equality/

إن كتاب توماس بيكيتي **تاريخ موجز للمساواة** هو استجابة لطلب متكرر من القراء والزملاء لتلخيص الدروس الرئيسية من كتبه السابقة، في صيغة مختصرة، وإسهامًا في المناقشات الحالية حول عدم المساواة "بناءً على قناعة قوية تشكّلَ في مسار البحث [بحثه]: إن التقدم نحو المساواة معركة بدأت منذ زمن بعيد وتحتاج فقط إلى أن تستمر في القرن الحادي والعشرين." (ص 8).

يهدف الكتاب إلى إثبات أنه اعتبارًا من نهاية القرن الثامن عشر، شهدت مجتمعات أوروبا الغربية (وفيما بعد، ورثة هذه المجتمعات) زيادة هائلة في المساواة، وبلغت ذروتها في العقود الوسطى للقرن العشرين. لقد صارت هذه الزيادة ممكنة بفضل التوسع المتزايد في العديد من الترتيبات

المؤسسية، كاكتساب حقوق التصويت، وتحقيق الديمقراطية البرلمانية، وحرية الصحافة، والميثاق الاجتماعي القائم على أنظمة مالية [ضريبية تصاعدية] للغاية وتعميم التعليم الإلزامي والتأمين الصحي وتشريعات العمل — باختصار تحقيق دولة الرفاهية. النقطة المركزية هنا هي أن عدم المساواة، حتى في بعده الاقتصادي، قد تم كبحه نتيجة لعملية سياسية بارزة. وبناءً على هذه المقدمات، فإن الهدف من الكتاب هو زيادة الوعي بمزايا هذا الميثاق الاجتماعي، وتعبئة الأفراد والفئات الاجتماعية للنضال من أجل السياسات التي تزيد من المساواة، وخاصة الأدوات التي أثبتت فعاليتها قبل عقود قليلة فقط، وهي الضرائب التصاعدية ودولة الرفاهية.

هذا المزيج من الأهداف التثقيفية والدعوية ساهم في جعل الكتاب واضحًا ومكتوبًا بشكل جيد. ومع ذلك، فإن النتائج غير متكافئة، فبينما يتميز الجزء التحليلي بالمتانة وإثارة الاهتمام، يظل الجزء الخاص بالدعوة للسياسات سطحيًا ومبسطًا وغير مقنع في نهاية المطاف — حتى لو اتفق المرء مع أهمية التصاعد المالي [الضريبي] المرتفع ودولة الرفاهية.

إن الحساسية التاريخية لـــبيكيتي، المعروضة بالفعل بشكل مقنع في أعماله السابقة، منعشة. فالإشارات المختصرة والمكثفة للعديد من فروع البحث التاريخية المتنوعة التي تتقاطع مع تاريخ الرأسمالية والعبودية والإمبراطوريات وأنظمة الملكية والدخل والثروة والتفاوتات الاجتماعية، تحفز على الفضول وتظهر أن المناقشة المستنيرة تاريخيًا فقط هي التي يمكن أن تعالج بشكل هادف مسألة التغيير الاجتماعي للمجتمعات المعاصرة.

وكاستطراد، فإن اختيار المراجع محدود وجزئي بشكل واضح. ونظرًا لأن بيكيتي يعتمد على المؤلَّف المؤثر لكينيث بوميرانز Kenneth Pomeranz حول "التباين الكبير" بين أوروبا والصين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد كان من المثير للاهتمام أن نقرأ موقف بيكتي من كتاب جويل موكير Joel Mokyr المقنع بنفس القدر حول نفس السؤال (انظر بوميرانز 2000؛ موكير 2016). وكان من المثير للاهتمام أيضًا، نظرًا لأن الاتجاه نحو المساواة، بدءًا من نهاية القرن الثامن عشر، الذي يتداخل تمامًا مع بداية وانتشار الثورة الصناعية في نهاية

المطاف، الوقوف عند ادعاء ديدري مكلوسكي Deirdre McCloskey أن "حالة الفقراء المطلقة قد تحسَّـــنت بشـــكل ســـاحق أكثر من خلال الإثراء العظيم من خلال [...] إعادة التوزيع "— استخدمت مكلوسكي مصطلح الإثراء العظيم كمقابل للثورة الصناعية ونتائجها — حيث يتبادر إلى الذهن على الفور باعتباره منظورًا ذا صـــلة (مكلوســـكي 2016، ص 47). لكن هذه مجرد تعبير عن فضول القارئ المتعاطف ولا ينبغي اعتبارها انتقادات لپيكيتي.

هناك فصـــلان مثيران للاهتمام بشـكل خاص يناقشـان كيف أن التفاوتات المعاصـرة الضـخمة متجذرة بعمق، على الصـــعيدين الدولي والمحلي، في ظواهر العبودية والاســـتعمار المتشـــابكة وعواقبها طويلة المدى. من خلال تبنّي هذا المنظور، ينضـم پيكيتي إلى الباحثين الآخرين الذين لاحظوا كيف أن المناقشـات حول اتجاهات عدم المسـاواة والتقارب convergence (أو التباين divergence) الدولية غير مكتملة بشـــكل خطير إذا لم تأخذ في الاعتبار الظواهر الحاســـمة للإمبريالية والاستعمار والعبودية. فمنذ عشرين عامًا، على سبيل المثل، لاحظ برانكو ميلانوفيتش Branko Milanovic كيف أنه في مقال مؤثر عن عولمة القرن التاســـع عشـــر لاثنين من زملائه المتميزين، "لم يذكرا أبدًا مفردات "الاستعمار" أو "المُستعمَرة" أو "العبودية" أو"الاستيطان"" (ميلانوفيتش 2003، ص 669). كما خلص ميلانوفيتش إلى القول إنـه "في هذا العالم من التبادلات الطوعية "النظيف"، يتم ببساطة إبعاد الحقائق غير السارة عن العبودية والغزو."

يوضـح پيكيتي بدلاً من ذلك أن الإمبريالية والاسـتعمار والعبودية أسـاسـية لفهم ديناميكيات عدم المســـاواة الدولية والمحلية، والعقبات على طريق تعظيم المســـاواة. ففي فصـــل عن "مســـألة التعويضـات"، على سـبيل المثل، يناقش كيف تم تطبيق اعتبارات الإنصـاف بشـكل منهجي على مالكي العبيد، الذين تم تعويضـهم عن خسارة ممتلكاتهم عند إلغاء العبودية، وغياب الانصاف في تعويض العبيد. في الواقع، غالبًا ما وجد العبيد المحررين أنفسهم مقحمين في أنظمة شبه قسرية تحت سـيطرة مالكي العبيد السـابقين. وعندما قبلت فرنسـا أخيرًا في عام 1825 اسـتقلال هايتي، اضـــطرت الأخيرة إلى ســـداد تعويض قدره 150 مليون فرنك ذهبي — أو 300 في المائة من

الدخل القومي لهايتي في عام 1825 — لملاك العبيد السابقين. ولم يتم إنهاء الدين رسميًا إلا في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي. كما يوضح پيكيتي، أنه كان للتاريخ الطويل الأمد للهيمنة الاستعمارية والعنصرية عواقب عميقة ودائمة على الظروف الحالية لهايتي وسكانها: "لقد تم تحديد تطور الجزيرة بشكل مفرط overdetermined من خلال مسألة التعويض" (ص 73). من أجل تحسين المساواة العالمية — ولكي يكون مفهوم الإنصاف غير مفرغٍ من معناه — يجب معالجة مسألة التعويضات بجدية.

لن ألخص هنا مناقشة پيكيتي للتحسينات التي استمرت لقرون في المساواة الاجتماعية والاقتصادية، الموضوع الرئيسي للفصول 1 و 2 و 6، لكن القراء سيجدون مناقشات حول تطور تركيز الملكية concentration، والتحولات المصاحبة لحقوق الملكية، وإعادة التوزيع الكبيرة التي حدثت في القرن العشرين، والمزايا النسبية للمؤشرات التركيبية synthetic indices مقابل المؤشرات الموضعية positional index الواضحة والغنية بالمعلومات.

ما هو أقل إقناعًا، كما ذكرنا، هو ذلك الجزء من الكتاب المخصص لمناقشة المقترحات الخاصة برسم السياسات لإعادة تأجيج موضوع التقدم في المساواة. بقدر ما تكون النبرة تحفيزية عند پيكيتي — "المعركة من أجل المساواة لم تنته بعد" (ص 203)، "ستستمر المعركة من أجل المساواة في القرن الحادي والعشرين" (ص 226) — فإن هذا النقاش يظلُّ عامًا ومتكررًا. النقطة الرئيسية، بالنسبة لپيكيتي، هي أن الوصفات التي نجحت في القرن العشرين، وبشكل أكثر تحديدًا في العقود الثلاثة والنصف التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، يجب أن تُؤجَجَ من جديد من خلال التعبئة الشعبية: "إن دولة الرفاهية والضرائب التصاعدية أدوات قوية تسمح لنا بتحويل الرأسمالية. ولا يمكن استئناف الحركة نحو المساواة إلا إذا أصبحت هذه المؤسسات هدفًا لحركة واسعة ولاستملاك جماعي." (ص 150). ونقرأ بعد بضع صفحات: "لمواصلة المسيرة نحو المساواة، يبدو أن المسار الطبيعي قد أصبح متأججًا بالفعل: علينا تعميق وتعميم المؤسسات التي

جعلت التحرك نحو المساواة والتقدم البشري والازدهار ممكنًا على مدار القرن العشرين، بدءًا من دولة الرفاهية والضرائب التصاعدية." (ص 155).

في الوقت نفسه، كانت دولة الرفاهية الوطنية في الخمسينيات والثمانينيات من القرن الماضي مقتصرة على بلدان شمال الكرة الأرضية، وأصبح من المستحيل تكرارها في مكان آخر بعد ثلاثين عامًا من العولمة المالية والتجارية. وكما كتب بيكيتي، فإن العولمة المفرطة hyperglobalization التي تم إطلاقها في الثمانينيات "ساعدت بشكل دائم في إضعاف العملية الهشة لبناء حكومة شرعية وسلطة الدولة في جنوب الكرة الأرضية." (ص 208). الحل، بالإضافة إلى "البديل الحقيقي" لرأسمالية الدولة الصينية الاستبدادية، هو بالنسبة لبيكيتي "الاشتراكية الديمقراطية القائمة على [قيم] التشاركية والفيدرالية والإيكولوجية والثقافات المتعددة. إنها النهاية المنطقية للحركة طويلة الأمد نحو المساواة التي كانت جارية منذ نهاية القرن الثامن عشر." (ص. 226).

حتى بالنسبة لأولئك وأنا منهم الذين يتفقون، من حيث المبدأ، مع الضرائب التصاعدية والحاجة إلى تعزيز دولة الرفاهية، يبدو النقاش غير مقنع لثلاثة أسباب على الأقل. أولاً، ليس لدى بيكيتي ما يقوله حول كيفية إنشاء وتطبيق نظام دولي جديد للتنمية التعاونية من شأنه مواءمة مصالح مجموعات مختلفة من البلدان والتغلب على التناقض بين البعد الوطني لدولة الرفاهية والديناميات الدولية للرأسمالية المعولمة. وقد كتب أن هذا النموذج من التنمية التعاونية يجب أن "يرتكز على القيم العالمية وعلى مؤشرات اجتماعية وبيئية موضوعية يمكن التحقق منها"، وأنه "يجب علينا أيضًا أن نصف بدقة المؤسسات المتخطية للحدود الوطنية التي من الأفضل أن يُعهد لها [إدارة] المنافع العامة العالمية والسياسات المشتركة للعدالة المالية والبيئية."(ص 244). لكن هذا النظام ليس سوى أداة خارقة *deus ex machina*، بحكم الصلاحيات التي خصصها لها بيكيتي، ستجبر الدول التي غالبًا ما عارضت المصالح بشدة في الواقع على التعاون.

ثانيًا، غالبًا ما تكون القيم والمصـــالح بعيدة كل البعد عن كونها عالمية حتى داخل البلد الواحد. إن الاشتراكية الديمقراطية والإيكولوجية والمتعددة الثقافات التي يدّعي بيكيتي أنها الحل لسياسات الانقســام الاجتماعي، هي في الواقع ســمة ملازمة لمجموعة من الأفراد المتميزين، وأخشــى أن يكونوا أقلية حتى في الديمقراطيات الليبرالية. في باريس عام 1930، نشـــر الإيطالي المناهض للفاشـية كارلو روسـيلي Carlo Rosselli مقالًا صـغيرًا بعنوان **الاشـتراكية الليبرالية** ([1930] 1994)، دعا فيه إلى التقارب بين النهجين الاشتراكي والليبرالي وتوسيع الديمقراطية والمساواة في جميع مجالات المجتمع، مع التركيز القوي على الآليات التشـاركية والفيدرالية والتدخل المباشـر والفعال للدولة لتأمين الحقوق الاجتماعية. تبدو فكرة بيكيتي عن الاشـتراكية الديمقراطية مشـابهة جدًا لاقتراح روسـيلي. ومع ذلك، وهذا هو السـبب الثالث لنقد هذا الجزء من الكتاب، لا يشـرح بيكيتي ما الذي ينوي إلا بعبارات سطحية للغاية.

كان من الممكن أن يسـتفيد هذا الكتاب من مناقشـة أكثر تعمقًا للسـياسـات المقترحة فيه، وكذلك للفلســفة الســياســية التي تقوم عليها. ونظرًا لأن هذه هي (أيضًــا) معركة أفكار، فإن الإطار الفلسفي كان يستحق مناقشة أكثر شمولاً. في الوقت نفسه، ولأنها معركة أفكار، فإن بيكيتي لديه نقطة مهمة عندما يقول: "من الضــروري بناء مثل هذا الســرد [الجديد] وإظهار كيف أن الطريقة التي تعمل بها دولة الرفاهية والضرائب التصاعدية في الواقع تشكل تحولا نظاميا للرأسمالية."(ص 155). على الرغم من القيود التي تم ذكرها للتو، فإن كتاب بكيتي هو مســاهمة في هذا الســرد الجديد. ■

References

McCloskey, Deirdre N. 2016. *Bourgeois Equality: How Ideas, Not Capital or Institutions, Enriched the World*. Chicago, IL: University of Chicago Press.

Milanovic, Branko. 2003. "The Two Faces of Globalization: Against Globalization as We Know It." *World Development*, Vol. 31, No. 4, pp. 667–683.

Mokyr, Joel. 2016. *A Culture of Growth. The Origins of the Modern Economy*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Piketty, Thomas. [2001] 2018. *Top Incomes in France in the Twentieth Century: Inequality and Redistribution, 1901–1998*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Piketty, Thomas. [2013] 2014. *Capital in the Twenty-First Century*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Piketty, Thomas. [2019] 2020. *Capital and Ideology*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Pomeranz, Kenneth. 2000. *The Great Divergence. China, Europe and the Making of the Modern World Economy*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
Rosselli, Carlo. [1930] 1994. *Liberal Socialism*. Edited by Nadia Urbinati. Princeton, NJ: Princeton University Press.

(*) أستاذ تاريخ الفكر الاقتصادي والتاريخ الاقتصادي، قسم العلوم السياسية والاجتماعية، جامعة بولونيا، إيطاليا.

Michele Alacevich is Professor of the History of Economic Thought and Economic History in the Department of Political and Social Science at the University of Bologna. His publications include *A Short History of Inequality* (Brookings Institution Press, 2018, with Anna Soci), "Planning Peace. The European Roots of the Postwar Global Development Challenge" (*Past & Present*, 2018), and *Albert O. Hirschman. An Intellectual Biography* (Columbia University Press, 2021).

(**) مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

تمت الترجمة بتاريخ 22 نيسان 2023

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.
http://iraqieconomists.net/ar/